

لا تطعن منافسك من الخلف

معروف ، وثابت تاريخيا ، أن مصر من أوائل الدول التي عرفت الفن السينيمائى: عرضا ، وصناعة ، وإنتاجا .

فقد شاهد الناس لأول مرة عرضا سينمائيا لمناظر من الحياة اليومية فى مقهى «جران كافايه» يوم ٢٨ ديسمبر ١٨٩٥ بباريس ، مهد الفن السينيمائى . فى أوائل يناير ١٨٩٦ كان أول عرض سينيمائى فى مصر بمقهى « زوانى » بالإسكندرية . وفى نهاية ذلك الشهر (يوم ٢٨) شاهد جمهور القاهرة (ولم يكن كبيرا) أول فيلم سينيمائى بمقهى « سانتى » القريب من فندق شبرد فى موقعه القديم بشارع الجمهورية .

تاريخ طويل إذن .. جدير بأن يسجّل ، ويحفظ ، ويُعرض ، ويُزار .. كيف ؟

فى متحف خاص ، وليكن قريبا من « ستوديو مصر » المجاور للأهرام ، أو على جزء من أرض هذا الاستديو الذى هو جزء حيوى فى تاريخ السينما المصرية ، وأثر طيب من أعمال الاقتصادى الوطنى العظيم : طلعت حرب .

يمكن أن يضم هذا المتحف العديد والطريف والمفيد من العناصر والمكونات التى صنعت تاريخ هذا الفن فى مصر - الرائد دائما - وتنسّق وتعرض بأسلوب جيد جذاب معلّم : صور فوتوغرافية حقيقية على مدار السنين ، نماذج ، ملابس ، حلى ، إعلانات أفلام دعائية أو كانت منشورة بالصحف ، رسوم وأنماط من الديكور

والأكسسوار والأدوات المستخدمة ، والسيناريو للأفلام ذات القيمة الفنية والتاريخية ثم يضاف ترتيب ندوات وأمسيات منتظمة في شبه ناد للسينيما ، تعرض فيها نماذج أو مقتطفات من أفلام لها قيمتها وأثرها في الحياة الفنية والاجتماعية، مع شروح وتعليقات الفنيين والمتخصصين الأمناء . ويراعى أيضا زيارات الطلاب والشباب في رحلات مدرسية أو شبابية ، وفق برنامج يجمع بين التسلية والترويح والمعرفة وتأكيد الاعتزاز بالوطن وإنجازاته ، واتصال الماضي بالحاضر ، وإثارة الطموحات نحو المستقبل ... ويلحق بذلك تحقيق دخل ونفع - معا - من خلال بيع كتب ونشرات وصور ونماذج ومواد لا حصر لها ، وكلها متعلق بدور المتحف ورسالته .

فكرة ...

ليست مستحيلة ، بل قد تكون مطلوبة ونافعة ومثمرة ، ينهض بها الرسميون ، أو الأدباء والفنانون ، أو نقابة هؤلاء ، وهؤلاء ، أو السلطات المحلية أو الشبابية أو .. القطاع الخاص ، ولم لا ؟ .. فلدينا مثال ...

في أوائل التسعينيات افتتحت في حديقة « جريفيث » بمدينة لوس أنجلوس الأمريكية متحف « جين أوتري » لأفلام « الغرب البعيد ^(١) Far West » أو رعاة البقر ، جاءت الهدايا - المناسبة له - من مواد وصور وتحف وملابس ووثائق ومصنوعات من كل الجهات والشخصيات، ومن بينهم « رونالد ريجان » الرئيس الأمريكي الأسبق، ومعروف أنه قديما مثل أدوارا - رديئة - من أفلام رعاة البقر .

ومن يكون « جريفيث » هذا ؟

(١) كان يقصد بهذا التعبير - قديما - الغرب الأمريكي شبه المهجور أو المهمل ، البعيد عن المناطق الشرقية العامرة بالسكان والوافدين . فكان هذا الغرب محتفظا بتقاليده وأخلاقه وسماته المميزة التي قدمتها السينيما الأمريكية ابتداء من سنوات العشرينيات في نوعية من الأفلام أطلق عليها « Westerns » ، أو رعاة البقر « Cow - boys ... »

هو منتج ومخرج سينمائي (ولد ١٨٧٥ ومات ١٩٤٨) . بدأ عمله السينمائي مخرجا عام ١٩٠٨ ، وفي خلال أربع سنوات كان قد ابتكر عدة وسائل وأساليب سينمائية ما زالت تستخدم حتى اليوم ، مثل : تقطيع السيناريو إلى مشاهد محددة بترتيب فني (ديكوباج) ؛ استخدام الإضاءة الصناعية ؛ تميع أو إضاءة معالم الصورة فتصبح غير واضحة (فلو Flou) ، طبع صورتين معا .. أو منظرين أحدهما فوق الآخر ليظهرا على الشاشة معا لإعطاء معنى التواصل أو التداخل أو السيطرة ، وابتكر أيضا لأول مرة عام ١٩٠٨ حركة الرجوع بالكاميرا (وهي تصوّر) إلى الخلف، وذلك في فيلم « مغامرات دولي » ، وفي عام ١٩٢٠ أنشأ شركة «الفنانين المتحدين» مع شارلي شابلن ، ماري بيكفورد ، ودوجلاس فيربانكس . وله العديد من الأفلام الصامتة التي أخرجها أو أنتجها ، أخرج فيلمان ناطقان : «أبراهام لينكولن» عام ١٩٣٠ ، و «الكفاح» عام ١٩٣١ ، ولم يحققا نجاحا .



من اليمين : شارلي شابلن ، ماري بيكفورد ، دوجلاس فيربانكس عند تأسيس شركة « الفنانين المتحدين» وظلت ماري مساهمة فيها حتى سنة ١٩٦٠ .

أما « جين أوتري » الذى تجاوز الرابعة والثمانين عند افتتاح هذا المتحف الذى يحمل اسمه وأنفق هو الكثير على إقامته ، فقد مثل وتقاسم البطولة فى ثلاثة وسبعين فيلما عن الغرب البعيد ورعاة البقر ، فى الفترة بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٦٨ . وله تعبيره المشهور فى تعليق له على هذا العدد الكبير من الأفلام : « لم أطلق النار من الخلف مطلقا فى أى من هذه الأفلام على منافسى أو عدوى » . وهو الذى وضع «قانون» أو «ميثاق الشرف» لراعى البقر البطل الحقيقى أو البطل الذى يظهر فى هذا النوع من الأفلام :

- ١ - راعى البقر (كاو - بوى) لا يكون أبدا هو البادىء بإطلاق الرصاص ، ولا يضرب من هو أضعف منه ، ولا يحصل على منفعة غير شريفة .
- ٢ - لا حق له مطلقا فى الرجوع عن وعد ، أو كلمة أعطاها ، أو يخون الثقة التى وُضعت فيه .
- ٣ - محتم عليه دائما أن يقول الصدق ، ويُظهر الحق .
- ٤ - يجب أن يكون مهذبا مع النساء ، وكبار السن ، ومع الحيوانات .
- ٥ - محظور أن يُظهر عدم تسامح سواء إزاء اختلاف الجنس أو العقيدة .
- ٦ - عليه مساعدة اليُوساء والتعساء والمحزونين .
- ٧ - يجب أن يكون عاملا مجتهدا نشيطا ، وليس خاملا أو كسولا متعطلا .
- ٨ - أن يكون على الدوام نظيفا : فى فكره ، وفى كلامه ، وفى ملابسه .
- ٩ - مع احترامه للمرأة ، يبجل والديه ، ويصون قوانين بلده .
- ١٠ - إن (الكاو بوى) مواطن جيد .



في عام ١٩٢٤ ، كتب أحد الصحفيين (جران أروى) يصف رعاة البقر أو رجل الغرب بقوله : « إنه توحدٌ يجتمع فيه مع الرجل ، والحصان ، والمسدس ، ومستعد متحفز دائما لأن تنطلق الرصاصة إلى حيث تقع نظرته - يُحكم التسديد ، فتخرق رصاصته الرعوس من بُعد مائة خطوة . يحمل ذهبه (نقوده) في صُرّة ، ويلف سجائره بيده ... » .

جون واين أشهر نجوم السينما العالمية في أفلام رعاة البقر . مات سنة ١٩٧٩ في سن ٧٢ .

مع الأيام أصبح هذا النمط

السينيمائي المميز مقبولا ومحبوبا من الجمهور في أمريكا وخارجها ، لأنه في الغالب، وتبعا لقانون أخلاقياته يستهوى الكثيرين في أى مكان ، فيستشفون منه نُبل الفرسان القدماء ، إلى جانب الإثارة وتنازع الدوافع وصراعات البواعث خاصة إذا انتصر في النهاية الخير ، الشجاع ، الجرىء ، المنتصر للحق ، حقه هو أو حقوق المغلوبين على أمرهم ، وما أكثرهم في هذا العالم !

إن راعى البقر باختصار : يمثل الاستمتاع الفردي بالحياة في حالته « الخام » أو الطبيعية البدائية ؛ رجل ، وسيلة الانتقال عنده (الفرس) ، وأداة قوّته المسدس (أو البندقية) ، الحب ، الصداقة ، الفعل الإيجابي أو الحدّث .

وما معنى متحف لرعاة البقر بعد أن تحول الغرب الأمريكى « البعيد » إلى مدن عملاقة وصناعات جبارة وشواطئ سياحية ترويجية جاذبة مبهرة ، وثرء طاغ يفوق ما كان عليه الشرق الأمريكى منذ كان ؟

ما قيمة التذكير بعصر مضى ، سينمائيا وواقعا في الحياة ، أو إحياء شعور بالحنين إلى الحصان والغدارة (المسدس) ومركبات البريد وأزياء السيدات التي تكاد تغطي كل شيء ، في عالم اليوم الذي يكشف كل مستور ، ويفعل كل محذور ، واستُبدلت الخيل والبغال والحمير بالسيارة والمترو والطائرة ، واستؤلد من الغدارة ما هو أشد غدرا وفتكا كالرشاش والمدفع ، والقنابل الذرية ؟



الصور مع عقارب الساعة من أعلى يمينا ..

- ١ - أوليفيا دو هافيلاند مع إرول فلين في فيلم: «مدينة المراوغة» .
- ٢ - مارلن ديتريش مع جيمس ستوارت في فيلم: «امرأة الشيطان» .
- ٣ - درويس دفينبورت مع جارى كوبر في فيلم: «فارس الصحراء» .
- ٤ - كلير ترفور مع جون واين / وجون فورد في فيلم: «كوكبة الفرسان الخيالية» .
- ٥ - جريس كيلي وجارى كوبر في فيلم: «القطار يصفرُ ثلاث مرات» .

إنه المعنى والقيمة : أن يتذكر ، خاصة الشباب والأجيال الصاعدة ، أن الإنسان يشق طريقه في الحياة ، بنفسه ، فيجد أنها صعبة ، قاسية ، وأحيانا شرسة شريرة عاتية ، فلا بد أن يكون قويا ، مستعدا ، يقظا في كل لحظة ، واثقا فطنا في كل موقف ، مبتسما متفائلا في كل أزمة وشدة . إن التفوق والنجاح الحقيقي في الحياة - وليس المسروق أو المغصوب أو المتوهم - يأتي نتيجة عمل ، وعمل جاد وشاق وقد يكون محفوقا بالمخاطر ، مرتكزا على قرار الفرد وحسن اختياراته وسداد تصرفاته فيما يواجه من مواقف صعبة أو منافسة كريمة . ثم إن الحياة لها قوانينها الصارمة ، ونظامها الدقيق الذي لا يتغير ولا يَحْتَلُّ مهما حاولنا عبثا تغييره أو تحويله . ومن هذه القوانين : لكى تعيش سعيدا في حياتك - أو على الأقل مستريحا بعض الشيء - عليك أن تفكر جيدا في ينابيع المنشأ والقطرة ، والتي استمد منها « جين أوترى » منهاج أو ميثاق راعى البقر في بنوده العشرة التي ذكرناها .

إن البطل في فيلم رعاة البقر ، صانع نفسه ، ماضٍ إلى مصيره رغم أنفه ، فهو يرشدنا إلى أن الجرأة - وليس التهور العابت - والعزيمة والثقة بالنفس ، تتولد منها الإيجابية والإقدام بثبات وصبر على العمل الشريف الجاد . أما النتائج فهي في أسوأ أحوالها لاتدفع إلى اليأس أو الهلع ، فإما أن تكون النهاية والموت ، وهي النهاية المحتمومة لكل إنسان ، وإما أن يبدأ المرء - بنفسه وبمقوماته وأسلحته - من جديد . وهي ببساطة : الرجل ، والفرس ، والسلاح ، والحب ، والصدقة ، والعمل الجاد....
